السلطان عبدالحميد يتصدى لأطماع
الدول الأوربية في بترول الدول العربية

يقول السلطان عبدالحميد في مذكراته التي قدم لها وترجمها الدكتور محمد حرب في كتابه القيم مارت ١٣٣٣:

الإنجليز يبحثون عن الآثار في العراق

ذكرت أنني أعطيت الألمان (امتياز) خط سكة حديد بغداد، وذلك لكي أجر الإنجليز إلى الاتفاق الذي أرضى عنه. ولهذا قصة أخرى طريفة أعرضها هنا.

لما قال الروس «لا» للاقتراح الإنجليزي الرامي إلى تقسيم دولتنا، بدأ الإنجليز يتقربون مني بشكل لم أستطع في البداية فهمه، استطعت معرفته بعد عدة أشهر. ذات يوم قابلني السفير الإنجليزي (في إستانبول)، وتحدث طويلاً عن أن الأناضول وسوريا والحجاز تعد مهد أعظم حضارات التاريخ، وسألني إن كنت فكرت في مشروع للتنقيب عن الآثار في هذه المناطق، فربما يمكن العثور على كنوز لو قامت مشاريع للتنقيب على هذه الآثار هناك، وقال إن التماثيل الصغيرة، والقُلل والأواني المكسورة العتيقة، والنقود القديمة، التي ستستخرج من تحت الأرض، لها قيمة الكنز. وإن النظر فيها ربما يكون من شأنه تغيير التاريخ، وسيمكن بواسطتها الحصول على معلومات (علمية) قيمة كثيرة. وبعد أن قال: إن قراءة الخط المصري القديم قدم للحضارة العالمية مكسباً عظيماً جداً، أضاف قائلاً: إن الدولة العثمانية

لو وجدت أن عمليات التنقيب عن الآثار في هذه المناطق تكلفها الكثير، فإن الحكومة الإنجليزية مستعدة لتقديم مختلف المعونات بكل سرور، وسترسل رجالها على وجه السرعة، وسيبدؤن في الحفر، وستصرف لهم الحكومة الإنجليزية مصاريفهم. وفوق هذا فإن ما يعثرون عليه من الآثار التاريخية هناك سيتركونه لنا دون مقابل.

ولما كان هدفي إقامة علاقات وطيدة مع إنجلترا، ولم أكن أعرف ما ينطوي عليه هذا الاقتراح: قبلت، واستدعيت الصدر الأعظم خليل رفعت باشا، على الفور، وشرحت له الاقتراحات الإنجليزية ونبهت عليه بمتابعة أعمال هذه الوفود القادمة.

والحقيقة أن الإنجليز أرسلوا مجموعة من علمائهم إلى إستانبول، دونما تأخير كثير. قابلتهم جميعاً في لقاء عام معهم. وتمنيت لهم النجاح، وأقمت لإكرامهم في ذلك المساء مأدبة عشاء دعوت إليها أيضاً سفراء الدول الأخرى، وكان يبدو على السفير الروسي بشكل خاص وبوضوح أنه غير ممتن من هذا التصريح. كان ينصت باهتمام وهو يبتسم بشكل واضح إلى حديثي عندما قلت له فيه: إن الإنجليز طلبوا السماح لهم بالتنقيب عن الآثار خدمة للتاريخ والحضارة.

وبدأ فريق من العلماء تنقيبهم في (منطقة) «قيصرية» (في الأناضول)، وفريق آخر في «الموصل»، وفريق ثالث في نقطة قريبة من بغداد. كانوا ينقبون بمساعدة العمال المحليين، وكنا أيضاً قادرين على متابعة أعمالهم، ولم يظهر شيء من هذه الحفريات غير بضعة أوان مكسوره وقلل وتماثيل

صغيرة وتوابيت ومقابر، وقام الإنجليز بتسليمنا هذه الأشياء، حتى النقود النحاسية القديمة.

كان السفير الإنجليزي يطلب كثيراً مقابلتي والتردد عليّ للإدلاء بمعلومات عن هذه الحفريات، وكنا نتحادث، وكنت أقدر جميع هذه الفرص، وكنت أمهد الأرض للاتفاق الذي فكرت في عمله. كنت أريد ألا أقدم أنا هذا الاقتراح. ولكني كنت أريد أن يقدمه الإنجليز بأنفسهم إلي، وبذلك يكون الاقتراح في ذلك الوقت اقتراحهم هم. وإذا وجدته مناسباً وافقت عليه، وإن لم أجده كذلك كنت سأرفضه. وهكذا كنت أحاول اقتطاف الأفضل.

****